

## قراءة في كتاب اللامنتمي لكولن ولسون

طحطاح المبروك

قسم الفلسفة جامعة الجلفة

"اللامنتمي" هو أكثر الأعمال جدلاً بين النقاد بسبب أنه يعالج لأول مرة موضوعاً جديداً، هو موضوع نفسية الإنسان اللامنتمي، الإنسان الذي يعيش عزلة وقلقاً، والذي لا ينتمي لمبدأ أو حزب أو عقيدة، ويجرّر ظلّه العملاق في طريقه المظلمة. إنه (ذلك الإنسان الذي يدرك ما تنهض عليه الحياة الإنسانية من أساس واه، والذي يشعر بأن الاضطراب والفوضوية هما أعمق تجذراً من النظام الذي يؤمن به قومه). كولن ولسون يقوم بهذه المعالجة على ضوء دراسة واسعة لشخصية اللامنتمي كما تتجلى في آثار كبار الأدباء العالميين والفلاسفة وكذا الفنانين، فيحلّل آثار "جون بول سارتر"، و"هنري بارباوس"، و"كافكا"، و"دستوفسكي"، و"أرنست همنغواي"، و"فريدريك نتشه"، و"هيرمان هيس"، و"ألبر كامو"، والرسام "فان كوخ".. الخ تحليلاً يلقي أضواءً ساطعة على روائع هؤلاء الكتاب والفنانين. ويستنتج من خلالها أمراض البشر النفسية في القرن العشرين كهدف أساسي لدراسته حدّده في العنوان الفرعي للكتاب، وبسبب ذلك ذاعت شهرته وتهاافت عليه القراء خاصة الشباب منهم، فلم تمض أربعة أشهر فقط من نشره حتّى أعيد طبعه عشر مرّات.

### تمهيد:

كانت يومياته رتيبة وكئيبة «.. فكان يقرأ قليلاً، ثم يستحم، وبعد ذلك يتمشى في غرفته، ويأكل، ثم يتعاطم في نفسه شعوره بعدم تحقيق أي شيء، حتى إذا أطبق عليه الليل بدأ يشعر بشعور من يريد أن يحرق منزله أو يقفز من النافذة، إن أسوأ ما يضايقه هو أنه لا

يستطيع أن يجد عذراً لبلادته»، ويقول أحدهم: «بدأ يحدث لي شيء غريب، تألف في البداية من لحظات من القلق والضيق بالحياة، وكأنني لم أكن أعرف كيف أعيش وماذا أصنع... ثم صارت تلك اللحظات تتكرر». ويضيف الآخر: «ماتت أمي اليوم أو بالأمس، إني لست متأكداً». لم يكن هذا الشعور بالقلق والضجر وعدم الاكتراث حالات فردية لأناس عاديين أرهقتهم مشاكلهم اليومية، إنما هو صورة لروح العصر.. لأشخاص كانوا أشدّ عناية بمشاكل الإنسانية الحقيقية وأكثرهم جرأة... وكانوا أقرب إلى روح العصر، وأصدق تعبيراً عنه... إنهم بحق ممثلوه.. تلك الحقيقة العميقة التي يراد إخفاؤها، وليست الظاهرة المزيفة. هذا العصر هو عصر اللامنتمي، عصر الأمراض النفسية التي ولّدها الحضارة الغربية بأشكال متعددة، والتي يخلّصها الكاتب " كولن ولسون" <sup>1</sup> بجرأة في كتابه " اللامنتمي" <sup>2</sup>.

### منهج القراءة:

أمّا منهج القراءة الذي اخترناه فهو تتبع تحليلات المؤلف للأعمال الكبيرة في هذا العصر، مع اختيار المهم منها فقط الذي يحدّد بنظرنا مميزات اللامنتمي، وذلك لكثرة الأعمال التي حلّلتها والتي لا تسمح لنا هذه الصفحات بتتبعها كافة، وحتى لا ننته مع روائع الأدب والفن والفلسفة دون أن نعطي الموضوع الجوهرى حقّه في قراءتنا، مع ملاحظة أنّنا لا ننتبه في هذه القراءة فصول هذا العمل كما وضعها المؤلف والتي يبلغ عددها التسعة فصول، بل نركز على الأفكار الرئيسة الواردة في الكتاب، وبالتالي سندمج مثلاً الفصل الأول والثاني معاً لوحدة الفكرة والثالث والرابع، وأيضاً السادس والسابع وهكذا. و نهدف من وراء هذه القراءة إلى الإطّلاع على معلم هام من المعالم التي تؤرخ للقرن العشرين الفكرية، وتطلّعون على إحدى خصائص القرن الرئيسة، قرن القلق والتشاؤم، وقرن اللإتّماء والتمرد. كما نهدف إلى الاطلاع على روائع الأدب العالمي التي أوردها المؤلف، ولو لم يكن من هدف سوى هذا لكان كافياً لضرورة الإطّلاع على مضمونه. ورسم صورة ولو قائمة لكثير من العباقرة الذين يمثلون الجانب المفكر لهذا العصر.

مضمون الكتاب:

يمكننا النظر إلى محتوى الكتاب من خلال فكرتين رئيسيتين تناولهما ولسون رغم تعدد فصوله: الفكرة الأولى تتمثل في محاولة الوصول إلى تعريف علمي واضح لمشاكل اللامنتمي، مع الأخذ بعين الاعتبار تنوع النماذج التي تحدّد أشكال اللامنتمي، ولذلك نجد أنه يتناول بالدراسة التحليلية مجموعة من النماذج لشخصية اللامنتمي والتي تتضمن نوعين: أولاً، اللامنتمي النموذجي في الأدب الحديث: وهنا يشير إلى اللامنتمي الوجودي الواقعي، أمثال سارتر و كامو و همنغواي (الفصل: 1-2)، و اللامنتمي الرومانسي مثل هيرمان هيس (الفصل: 3)، ليستنتج أنه على الرغم من أن تحليلات هؤلاء الكتاب ضرورية وتساعدنا في فهم المشكلة إلا أنها غير كافية، كما أن التعبير عنها بمصطلحات الأدب يعدّ تزيفاً لها. ثانياً، النظر إلى المشكلة كمسكلة حيّة عاشها أصحابها (الفصل: 4)، و يدرس من خلال هذه الزاوية النماذج التالية لورنس العرب وفان كوخ و فازلاف نجنسكي. أمّا الفكرة الثانية الرئيسية للكتاب فتتمثل في الحلول المقدّمة، إذ يتناول فيها ولسون مجموعة المحاولات والحلول التي قدّمها اللامنتمي، لكن قبل أن يتطرق إلى ذلك بالتحليل، خلّص إلى أن مشكلة اللامنتمي لا تكمن في كونه مجنوناً، بل هو أكثر حساسية، ومشكلته تتمحور كلّها حول الحرية، أي أن يكون حراً. من هنا يقدم الفيلسوف الألماني "نشه" نموذجاً (الفصل: 5)، ثم يقدم الحلول وذلك بتحليل أعمال "تولستوي"، و"دستوفسكي"، و"جورج فوكس"، و"وليام بليك"، الفصل: (6-7-8)، وأخيراً المحاولات التي قدّمها متصوفة الشرق من خلال نموذج "راما كريشنا" (الفصل: 9)، ليستنتج أن بحث هذا الكتاب صار حلقة كاملة، ولا يهدف إلى إيجاد حل نهائي.

## 1-1 يتناول كولن ولسون في الفصل الأول المعنون بـ " بلد العميان" والثاني

"عالم بلا قيم"، والثالث " اللامنتمي الرومانسي" مجموعة من الأعمال لأدباء ومفكرين كنماذج تمثل شخصية اللامنتمي النموذجي في الأدب الحديث، وتحدّد مشكلته، و كل نموذج يقدمه المؤلف يوحى بشكل من الأشكال مشكلة اللامنتمي. فبدّلنا على بطل قصة"

**الجحيم** "للأديب هنري بارباوس. بطله بلا اسم، يأتي إلى باريس من الريف ويجد وظيفة في أحد البنوك، ليس لديه نوع من النبوغ، لا غاية يحققها، لا مشاعر ذات قيمة يمنحها: (لا أملك شيئاً ولا أستحق شيئاً، وبالرغم من ذلك، أشعر بحاجة إلى تعويض) ص: 12. كل ما يفكر فيه مشاعر قديمة غامضة، ملاذ جسدية، والموت.. مشكلة بطل بارباوس أنه يلجأ إلى غرفة في الفندق ويغلق بابها، ويعيش ليرقب الآخرين من ثقب في الحائط. إنه يرى أكثر وأعمق من الآخرين) وهو لا يرى إلاّ الفوضى. إن اللامنتمي إنسان استيقظ على الفوضى، ولم يجد سبباً للاعتقاد أن الفوضى ايجابية بالنسبة للحياة. ويظل مشغولاً بفكرة أن محيطه يلوح غير قابل لإشباع رغباته. أمّا عمل هـ.ج. ويلز الأخير "العقل في منتهى حدود الكمال" فبطله رجل عاش طوال حياته منتمياً لمجتمع، لقد أنجز واجباته تجاه المجتمع دون كلل، وفجأة يرى الهوة أمامه، هذه الحياة كمثل الحلم، فهي ليست حقيقية. (إن شاشة السينما أمام أعيننا، وتلك الشاشة هي واقع وجودنا. إن حبنا أو كرهنا، حروبا ومعاركنا ليست أكثر من أطياف ترقص فوق تلك الشاشة، هي في عدم وجودها كالأحلام) ص: 18. إن ويلز كان مريضاً عندما كتب هذا المؤلف. أمّا بطل قصته "بلد العميان"، فهو لامنتمي أيضاً يدّعي أنه الوحيد الذي يستطيع أن يرى، ويردّ على من يتهمه بالمرض قائلاً: (الأعور في بلاد العميان ملك) ص: 21. إن حالته في الواقع كونه الوحيد الذي يعرف أنه مريض في حضارة لا تعلم أنها مريضة، وهو يواجه هذه الحقيقة المؤلمة. وفي نموذج ثالث يقدمه ولسون يغوص في بحر الأدب الوجودي، باحثاً عن أشكال أخرى لمشكلة اللامنتمي؛ فيتناول بعض أعمال سارتر و ألبير كامو اللذين أعادا التأكيد على اللامنتمي. بطل قصة سارتر "الغثيان" مؤرخ يدعى روكانتان يعيش وحيداً في فندق من فنادق المهافر، أما حياته فهي سجل من الأبحاث، والأحاديث الدائرة في المكتبات، والاتصالات الجنسية مع صاحبة الكازينو: (أعيش وحيداً، وحيداً تماماً، ولا أكلّم أحداً إطلاقاً، لا آخذ شيئاً ولا أعطي شيئاً..) ص: 23. مشكلته أنه يلاحظ الأشياء بحدة وأمانة أكثر مما يجب، ويسأل عن كل شيء. حياة هؤلاء الناس تعتمد على المصادفات، تعتمد

على الحوادث، فإذا انتهت الحوادث، أي لم يحدث شيء، فإنهم يتوقفون عن الكينونة. إن الوجود عبث ولا معنى له، كل الأشياء تسيطر على الإنسان، حتى المدينة بضحيجها وشوارعها المكتظة والكائنات البشرية تسيطر على شخصيته. روكانتان يشعر بهذا اللامعنى في مواجهة الأشياء، إن محيط روكانتان قذر ومظلم، فرض عليه لا معنويته حتى تأكد لديه أنه (لا يملك شيئاً ولا يستحق شيئاً) ص: 28. ولهذا يصف الظروف التي يهاجمه فيها الغثيان (ليس الغثيان في داخلي، إنني أحس به في خارجي. هنالك في الحائط.. في كل مكان حولي..) ص: 24. أمّا لامتتمي ألبير كامو في عمله "الغريب" فهو شاب جزائري يدعى ميرسول، شبيه إلى حد كبير بلامنتمي بارباروس، ليس لديه نبوغ، ويفوقه في كونه لا يملك شيئاً من المشاعر: (ماتت أمي اليوم أو بالأحرى، إنني لست متأكداً) ص: 30. يصاحب أحد السماسرة، ويجد نفسه مشتركاً في ثأر قديم بين السمسار ورجل عربي، فيصيب العربي ويقتله ليجد نفسه في المحكمة بتهمة القتل. وهنا تقف كل ميزاته بوصفه لا متممياً ضده. فإن من يرتكب جريمة قتل يجب، على الأقل، أن تكون لديه مصلحة ما في ارتكاب الجريمة. يبكي ويحتج لينال البراءة لكن لم يشفع له ذلك، يُحكم عليه بالإعدام. وتهديه أفكاره قبل نومه ليلة الإعدام إلى حقيقة: (.. بينما كنت أحلق في السماء المظلمة.. فتحت قلبي إلى عدم الاكتراث الكوني البديع) ص: 32. لقد كشفت الصفحات الأخيرة عن سر سبب عدم اكتراث ميرسول، وكان ذلك السبب هو شعوره بالاحقيته، مثل ما حدث لروكانتان أو لبطل ويلز، لكن يقظته كانت متأخرة جداً، كانت ليلة إعدامه، إلا أنها أعطته فكرة عن معنى الحرية: (الحرية هي الفكك من الاحقيقة) ص: 33. وينتقل بعدها ولسون إلى تحليل أعمال الأديب الأمريكي الكبير "أرنست همنغواي"، وتفصيل أعمال هذا الأديب هي مرآة عاكسة لتجارب حياته. للتذكير أن كل النماذج التي يختارها "الحقل ملاحظاته" هي عنيفة ودموية. في "وطن الجندي" يحكي قصة جندي أمريكي يسمى كريس عاد من الحرب، وقد امتلأت أعماقه بكرهية لكل ما حدث له في الحرب. إنه يحس في بلاده بنوع من الخمول يجعله يقضي أوقاته بين القراءة والمراهات. لا يكثرث لطلب أمه بالبحث عن

العمل. بالنسبة له كلامنتمي لا معنى لقول الأم: (خلق الله لكل إنسان عملاً، ولهذا لا تجد يداً كسولة في مملكته)ص:34. أما حديثها الذي ترجو من خلاله عطفه عن أمها ولدته وحملته بجانب قلبها حين كان صغيراً، فيشعره بالمرض، وبالغثيان. أما في عمله " الشمس تشرق أيضاً" فنجد جواً خائفاً من التفاهة واللابطولة. بطلها "جاك بارنز" يصاب في الحرب بجرح يفقده رجولته، ليصبح هذا الجرح رمزاً لكل مأساة الحرية غير المدركة. ويوجب على الإدعاء الإنساني بكمال الإنسان في قصة " التاريخ الطبيعي للأموات " التي تعبر عن فلسفته في الحياة: (معظم الناس يموتون كالحيوانات، لا كالبشر)ص:41. هذه النماذج تمثل اللامنتمي الواقعي الوجودي، محيطه كربه جداً، وعالمه مجرد من القيم، ويرى أن هذا العالم الجديد يبعث على الرعب. ثم ينتقل في نفس السياق إلى اللامنتمي الرومانسي أو الخيالي الذي: ( يلحم بعوالم جديدة)ص:54. إننا نجد هذا اللامنتمي عند غوته في قصة "آلام فارتير". أما الكاتب الذي يقدم لنا هذا النوع فهو "جيمس جويس" وبطل قصته الفنان "ستيفن ديدالوس" الذي يبدأ حياته باعتباره معداً ليكون شاعراً. (لم يكن هذا البطل راغباً في اللعب مع الأطفال، ظن نفسه أنه مختلف عنهم، بل كان يريد أن يلتقي في هذا العالم بالصورة المعنوية التي يحتفظ بها في ذهنه دائماً)ص:55. لقد دفعه ذلك الاضطراب في المساء إلى التجوال بين الحداثق بحثاً عن ما يحول بخاطره، وملاً نفسه عدم رضى غامض حين نظر إلى أرصفة السفن وإلى النهر والأفق إلا أنه استمر في تجواله هنا وهناك.... وهنا نلاحظ أن السلوك الوجودي الذي وجدناه في الأول حلّ محلّه سلوك مثالي أفلاطوني، الذي يبحث عن الصورة المعنوية التي تراها روحه دائماً. ونعثر على هذا النوع في الأدب الألماني كما هو الحال مع "شللر"، و"توفاليس"، و"فخته"، و"هولدرلن" و"هيرمان هيس". وفي الأدب الفرنسي مع "مارسيل بروس" ..

في إحدى روايات هيس المعروفة بـ "ستيفن وولف"، بطل القصة لا يشبه لامنتمي بارباوس، إنه أكثر ثقافة وأقل حيوانية، يومياته عبارة عن مجموعة من الأحلام، إنسان منطوي على ذاته، يعيش في غرفته. تبدأ اليوميات بوصف يوم نموذجي من أيامه:

(كان يقرأ قليلاً، ثم يستحم، وبعد ذلك يتمشى في غرفته، ويأكل، ثم يتعاطف في نفسه شعوره بعدم تحقيق أي شيء، حتى إذا أطبق عليه الليل بدأ يشعر بشعور من يريد أن يحرق منزله أو يقفز من النافذة، إن أسوأ ما يضيقه هو أنه لا يستطيع أن يجد عذراً لبلادته، في الوقت الذي يعتبر فيه نفسه فناناً متأملاً.. يذهب إلى أحد الفنادق، ويجلس متأملاً، ويشعره الطعام والشراب ببعض الراحة، وفجأة يجد نفسه في الطبع الذي يئس من الحصول عليه سابقاً) ص: 65. أمّا "هنري جيمس" فقد بحث مشكلة اللامنتمي أكثر مما بحثها هيس، اتجهت أعماله منذ البداية إلى معالجة مشكلة: ماذا نصنع بحياتنا؟ أمّا أبطال قصصه فكلهم من الشباب الذين يواجهون الحياة. في قصته "صورة سيدة" يرينا فتاة شابة تواجه الحياة، فيدفع نجاحها الكبير في المجتمع الإنجليزي أحد اللوردات إلى طلب يدها، إلا أنها ترفضه، لأنها تشعر أن إمكانيات الحياة المثيرة أوسع، إلا أن هذه الإمكانيات تنتهي بحب فزواج فاشل يتركها شاعرة بتبخر آمال مستقبلها. إن جيمس يعمل دائماً على دحر جل أبطال قصصه إذا كان الحال يتعلق بمشاكل اللامنتمي.

1-2 إلى هذا الحد تناول ولسون مشاكل اللامنتمي كما عبّر عنها الكتاب، لكن مشكلة اللامنتمي هي مشكلة حيّة يعيشها الإنسان، والتعبير عنها بمصطلحات الأدب يعتبر تزيفاً لها. مع أن ذلك قد ساعدنا على الوصول إلى تعريف علمي واضح لمشاكل اللامنتمي. ص: 79. يأخذ ولسون ثلاثة نماذج تجمعهم ميزة واحدة وهي أنهم لا يملكون شيئاً ولا يستحقون شيئاً، وكانت نهايتهم مفعجة جداً؛ وهم لورنس العرب الذي عاش لامتتياً بعد نجاحه الحربي، فالجرب التي خاضها في بلاد العرب وسعت إدراكاته، فعاد منها أكثر حكمة لكن بأقل سعادة، وعاش فترة حافلة باليأس والألم، وراقص الباليه الروسي الشهير بنسكي الذي انتهى به الأمر إلى الجنون. والأخير الرسام الهولندي الكبير فان كوخ. ولسون يتناول كوخ ليس كفنان بل كلامنتم. لقد عاش حياته كلها معانياً من نوبات عصبية حادة، وهي تعبير عن اللامنتمي. حبه الفاشل ضاعف من ميله إلى التأمل، ولم يكن يتقبل مشاكل الحياة، ممّا جعله كثير التنقل. رسم كوخ في أواخر حياته لوحة

دعاهما " ذكريات الشمال " تعبر عن حياته البائسة، تصور هذه اللوحة سماء شتائية حمراء، غارقة خلف سحب أخضر— رمادي، ومملوءة بقطع الغيوم القذرة الملتفة التي يلوح عليها شيء على أشعة الشمس. أما في مقدمة اللوحة فهناك بعض البيوت الكالحة، والأغصان والأشجار التي نجد فيها ما وجدناه في قطع الغيوم من التفاف واضطراب وخطوط حمراء، وينعكس على اللوحة كلها ضياء كبيرتي. لقد تغير أسلوبه في الرسم، بعد فشله العاطفي الثاني، لم تعد لوحاته تمثل مناظر طبيعية واقعية، أو مناظر داخلية، وإنما صارت ألوانه أقوى، ويبدو في بعض لوحاته نوع غريب من الفوضى التي تجعل الأشجار، والبيوت تلوح وكأنها تحترق، وتنبعث منها ألسنة اللهب. ووصل بكوخ الحدّ إلى أن بتر أذنه بموسى حلاقة ووضعها في علبة كبريت وأهداها لفتاة. وأخذت حياته مظهر الرجل الوحشي. في آخر لوحاته التي رسمها والمعروفة بـ "حقل حنطة وغربان" نرى فيها: سماء زرقاء يشوبها السواد، تهدّد بعاصفة شديدة، وطريقاً يبدو على يسار اللوحة ويتغلغل فيها حتى يتلاشى في وسط الحقل وكأنه نهر سريع الجريان، بينما يبدو في اللوحة جو من التشاؤم والقلق. ليعود إلى المكان ذاته الذي رسم فيه اللوحة وأطلق النار على نفسه من مسدسه، لم يمت إلا بعد يومين وكتب في آخر رسائله: (أما بالنسبة لرسائلي الفنية فقد ضحيت بحياتي من أجلها، ومن أجلها فقدت نصف عقلي)، أما آخر كلماته فكانت: *لن ينتهي الشقاء* ص: 100. عاش أربعين عاماً رساماً لكنّه لم يعرف أنه كذلك إلا في ثماني سنوات الأخيرة من عمره.

2- إنّ النهايات المأسوية جداً لهؤلاء العباقرة، الجنون والانتحار، جعلت ولسون لا ينظر إلى اللامنتمي على أنّه مجنون، بل أكثر حساسية من المتفائل، إنه يبدأ بنوع من التوترات الداخلية، والسؤال: كيف تُحلّ هذه التوترات؟ لا يرضى ولسون بالحل الذي يقدمه صحيح العقل: (أرسله إلى المحلّل النفسي) ص: 124. إنّ مشكلة اللامنتمي هي مشكلة الحرية، فالحلّظات المرعبة التي يصفها اللامنتمي هي الشعور بـ (لست أملك الحرية) ص: 130. تفكيره في الـ "لا" النهائية و الـ "نعم" النهائية هو في الحقيقة تفكير في

العبودية المطلقة والحرية المطلقة، والنماذج التي أخذناها تبين أن الإنسان يصبح لامتنباً حين يبدأ بالتذمر تحت وطأة شعوره بأنه ليس حراً. لكن ليست الحرية السياسية بل الحرية بمعناها الروحي العميق.. يريد اللامتنب أن يكون حراً، وقد تناول المؤلف الفيلسوف الألماني اللامتنب "نتشه" بالتحليل، الذي قدّم حلاً لمشكلة اللامتنب في هذا الجانب. كان نتشه عليل الجسم، وكان رومانسياً. كان متديناً، لكنه سرعان ما انقلب إلى الكآبة: ( لقد تعلقت بتلك المعتقدات بلا جدوى تعلق الملاح بحطام سفينته الغارقة)ص: 142. رفض ضعفه والضعف الإنساني، وكره الشقاء الذي يعاينه البشر، واقتنع أن أسمى وأقوى إرادة في الحياة لا تتمثل في الكفاح التافه من أجل الحياة، بل في إرادة الحرب، وإرادة السيطرة..

**هكذا تكلم زرادشت** من روائع الأدب الألماني الحديث، يشير فيه نتشه بفكرة الإنسان الأعلى، الإنسان الذي يعلو ولا يعلو عليه، والتي هي صدى للحاجة إلى الخلاص. وللعلم زرادشت نبي بدأ بعثته التبشيرية تاركاً المجتمع، متزوّياً لوحده طيلة عشر سنوات، ويعود زرادشت ليبشر بدينه الجديد. (إن آخر ما أعد بانجازه هو إصلاح البشر... لينبذوا الأصنام وأعني بالأصنام المثل العليا)ص: 160. هذه القيم هي التي أخطت من قيمة الإنسان، وبدأ هذا الانحطاط مع سقراط. وقد أثار نتشه بعدها بقليل ليصاب بالجنون في سنواته الأخيرة هو الآخر. إن اللامتنب لا يعرف من هو لقد وجد ذاته، لكنها ليست ذاته الحقيقية. ولهذا يعرج ولسون على لامتنب الكاتب الروسي الكبير "تولستوي"، المشهور برواية " الحرب والسلام"، وحالته هي أيضاً محاولة لإيجاد حل لمشاكل اللامتنب. يحدثنا كيف بدأت تجارب تولستوي بقوله: (بدأ يحدث لي شيء غريب، تألف في البداية من لحظات من القلق والضيق بالحياة، وكأنني لم أكن أعرف كيف أعيش وماذا أصنع.. ثم صارت تلك اللحظات تتكرر). وأخيراً يقول: ( شعرت بأن ما كنت أقف عليه قد أثار.. ولم يعد ما كنت أعيش من أجله موجوداً، ولم يبق لي شيء أعيش له). ص: 172. ويقص تولستوي خرافة شرقية توحى بسلوك اللامتنب تدور على رجل يتعلق بغصن يتدلّى إلى هوة عميقة، لينجو من وحش مفترس في الأعلى، ومن وحش آخر في الأسفل، بينما يقرض الغصن جُرذان، وبينما

هو معلق يلاحظ قطرات من العسل على أوراق الغصن، فيمدّ لسانه إليها ليلعقها. وفي قصته "مذكرات مجنون" كتب عن هذه الأزمة، وأيضاً قصة "موت إيفان ايلييتش" الذي يسأل في أواخر أيامه بعد أن هدّده الموت إثر إصابته بمرض السرطان: ترى ألا يمكن أن تكون حياتي كلّها خطأ؟ لكن فجأة يشعر بشيء من الحنان نحو زوجته.. ويضيء هذا الحنان ظلماته، ويبحث فيه شيئاً من الإيثار.. أمّا الكلمات التي أطلقته من شقائه فكانت: سامحيني. وهذا شكل من أشكال اليقظة الدينية، لأن الإيثار هو جوهر المسيحية. أما أعمال الكاتب الروسي دوستويفسكي فقد حلّلها ولسون تحليلاً أعمق في هذا الفصل، خاصة عمله "الأخوة كارامازوف". القصة تتحدث عن ثلاثة إخوة يمثلون اللامنتمي: ميتيا وإيفان و أليوشا، أما الفكرة فبسيطة، نجد ميتيا وأباه الشرير الشهوواني ينازع أحدهما الآخر على حب فتاة واحدة. وحين يقتل شقيق ميتيا اللاشعري سميردياكوف أبا ميتيا، تحوم الشكوك حول ميتيا فيقبض عليه وينفى إلى سيبيريا، وينتحر القاتل. أمّا أليوشا فيمتاز بطبع انزعاجي، يدرك الدين ويفهمه في وقت مبكر، لكنه يصاب برجة عقلية حين يتوفى رئيس الدير الذي يقدسه، وينتهي الأمر به ذاهباً إلى العالم ليبحث عن خلاصه. أما إيفان فيفكر أكثر مما يجب ليتمتع بالحياة. ليصل ولسن إلى أن التطرف في الجريمة والتطرف في الزهد، القتل والنبد، أثر واحد، فكلاهما يحرران اللامنتمي من تردّده الأساسي. ويخلص في النهاية إلى أن اللامنتمي يريد أن يكون لامنتمياً، ويريد أن يحصل على إدراك حسي حر، ويفهم الروح الإنسانية، وينجو من التفاهة إلى الأبد، وفوق كل ذلك يريد أن يعرف كيف يعبر عن ذاته. كما توصل إلى اكتشافين عن طريق اللامنتمي: أولاً، خلاصه يكمن في التطرف. ثانياً: فكرة الخروج تأتي على شكل لحظات من الشدّة والرؤى الصوفية. وهذه الحلول الدينية نلاحظها في أعمال "جورج فوكس" — على الرغم من أن نظرة ولسن للدين سلبية — الذي انتهى به كفاحه إلى إدراك مفاجئ من الله مكّنه من معرفة الحقيقة بعد أن كان لامنتمياً والأمر سيّان مع "بليك".

في آخر فصول الكتاب، يواصل ولسون عرض بعض الحلول التقليدية لمشاكل اللامنتمي، والمحاولات التي بذلت من أجل الوصول إلى تلك الحلول كما رآها نسّاك ومتصوفو الشرق، فيأخذ المتصوف الهندوسي "راما كريشنا" الذي كانت له تجارب صوفية ورؤى في صغره وهبته إدراكاً لحالة كاملة من حالات الهدوء الروحي. وفي غمرة تأملاته العميقة وصلواته المتواصلة يصف حالة عاشها: (قاسيت أشد الألم لأنني لم أحصل على بركة رؤياي للألم. شعرت وكأن شيئاً يعتصر قلبي كالمنديل المبلل... واستولى عليّ قلق شديد، وخشيت أن لا يكون في استطاعتي أن أراها في هذا العالم، ولاح لي أن الحياة لا تستحق أن يعيش فيها الإنسان، ثم وقع بصري على السيف المعلق على معبد الأم، فقفزت إليه وقبضت عليه مصمماً أن أضع لحياي حداً، وفجأة كشفت الأم المباركة على نفسها لي... واختفت الأبنية والمعبد... ولاح بدلاً عنها.. بحر وضّاء من الإدراك الروحي... فسقطت فاقد الشعور) ص: 294. يعترف ولسون بأن بحث هذا الكتاب صار حلقة متواصلة، وليس الهدف هو إيجاد حل نهائي كامل لمشاكل اللامنتمي، بل الإشارة إلى أن هنالك حلولاً تقليدية أو محاولات بذلت من أجل الوصول إلى تلك الحلول.

### الخاتمة:

و ما نستطيع أن نستخلصه من هذا الكتاب هو أن ولسون على اطلاع وإلمام واسعين بثقافة هذا العصر وخصائصه، ويتجلى ذلك من خلال الأعمال الهامة لأدباء ومفكري العصر، والذي انعكس على تحليله وتشخيصه للمشكلة، فغدا عمله نوعاً من التشرّيح الهادئ والمتواصل لمشاكل اللامنتمي. لكن نرى أنّه تعمّد قراءة تلك الأعمال من منظور محدّد وهو المنظور الوجودي الذي كان تقليعة العصر في تلك السنوات، ممّا أثر على النتائج التي توصّل إليها. وقد حوّل هذا العمل — حسب النقّاد — ولسون هو الآخر إلى لامنتمٍ. ويبقى الكتاب من أهم كتب التحليل والتشريح لأمراض الحضارة الغربية المعاصرة الروحية التي لم يقدم فيه ولسون الحل لها .

**الهامش :**

- 1 كولن ولسون، كاتب إنجليزي ولد في 26 جوان 1931 في إنجلترا من عائلة فقيرة. ساعدته قراءته المتنوعة على تأليف هذا الكتاب وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره، نشره سنة 1956. يتناول فيه تحليلاً لنفسية أدباء العصر ومفكريه الذين لم يتكيفوا وواقعهم الاجتماعي، وعاشوا في عزلة عن مجتمعاتهم بأسئلتهم الدائمة والمقلقة. ألف العديد من الكتب مثل: "الدين والتمرد" 1957، "عصر الهزيمة" 1959، "قوة الحلم" 1961، "أصول الدافع الجنسي" 1963، "ما بعد المنتهى" 1965، وأيضاً العديد من الروايات كـ "طقوس في الظلام"، "رجل بلا ظل"، "طفلييات العقل" الخ. أثارت مؤلفاته التي يربو عددها على 110 كتاباً، جدلاً واسعاً في الأوساط الأدبية الإنجليزية والعالمية. ولقيت معظم أعماله رواجاً كبيراً، كما كُتبت عنها العديد من المؤلفات النقدية.
- 2 اعتمدنا في قراءتنا لهذا الكتاب على الطبعة الرابعة من الترجمة العربية التي قدّمها أنيس زكي حسن التي نشرت سنة 1965 عن دار العلم للملايين بيروت.